نحوَ سلامٍ شاملٍ

محمد بن عبد الكريم العيسىٰ(*)

باسمِ اللهَّ، والحمدُ للهَّ، والصلاةُ والسلامُ علىٰ نبينا محمدٍ، وصحبِه ومن والاه.

أما بعدُ.

فضيلةَ الإمام الأكبر، الأستاذ الدكتور أحمد الطيب، شيخَ الأزهرِ.

السادةُ الكرامُ، أعيانَ المؤتمرِ.

السادةُ حضورَ المؤتمر المباركِ.

السلامُ عليكم ورحمةُ اللهَّ وبركاتُه.

أما بعدُ،

فإنه من دواعي السرورِ والافتخارِ أن نكونَ اليومَ في هذا المحفلِ العلميِّ والفكريِّ في بُعدِه الحضاريِّ والإنسانيِّ، لنلتقيَ في مشروعٍ واحدٍ وعلىٰ موضوعٍ مهمٍّ، تقومُ عليه مدارُ حياتنا، في تهالُكِها وتعايُشِها وسكينَتِها، وقد قَفَزَ في هذا الحضورِ صوتُ الداعي -الأزهر الشريف- وصار المدعوُّ إليه شأنَ السلامِ.

والدعوةُ للسلامِ تستدعي قيمَ الإسلامِ الرفيعةَ؛ فالسلامُ مقصدٌ عظيمٌ في الإسلامِ، وهو لا يتحققُ بمجرَّدِ حواراتٍ تُدارُ من حين لآخَرَ، تأتي في سياق أمانيَّ وتمنِّيَاتٍ.

فلا بد إذًا من أثرٍ ملموسٍ يسبقُه عملٌ صادقٌ فعَّالٌ، ولا يكون كذلك إلا بمحكماتِ السلامِ الحقيقيةِ، من حبِّ الخيرِ، للإنسانيةِ أجمعَ، ومن سموٍّ علىٰ كلِّ

معنىٰ من معاني الإنسانِ الذاتيةِ بطغيانِ مطامعِه المادية التي تجرَّدت من المعنىٰ الحقيقيِّ لوصفِ الإنسانِ، هذا الوصفِ المميزِ له عن وحشيةِ غيره.

بل إن بعضَ المخلوقاتِ لها بعضُ المعاييرِ الإنسانيةِ، والتي تظهرُ من خلالِ تقارُبِها وتعلُّقِها ببعضها البعضِ، ويفتقدُها مع بالغ الأسفِ كثيرٌ من البشرِ.

والشيءُ المؤكدُ في هذا أنَّ رايةَ السلامِ العالميِّ تُرفعُ تارةً، ثم تَعجِزُ تارةً، أو تَخبو في حينٍ آخرَ، وأنه لا سلامَ إذا ازدوجت المعاييرُ، ولا سلامَ إذا هيمنت القوةُ وحدَها، فعندها لن تَسُودَ قيمُ العدالةِ، ويضيقُ بالسلامِ المكانُ، ولا سلامَ إلا بصفاءِ الوجدانِ، ولا سلامَ إلا بتسامحٍ ووئامٍ، وئامٍ حقيقيٍّ يرفضُ خلقَ الكراهيةِ البغيضةِ، ويغرسُ المحبةَ في نفوسِ الجميعِ.

تلك عباراتٌ جميلةٌ، نشدو بها قولًا في العديد من المحافل، وندرِّسُها لأولادنا درسًا درسًا، ونُعبِّرُ عنها في عالَمِنا الدوليِّ تأييدًا أو شجبًا وإدانةً، وإنما البعدُ الغائبُ هل ننفِّذها فعلًا؟ وهنا تتبدلُ تلكم المعادلةُ عندما يتبادلُ وصفُ الإنسان مع جنسِ الحيوان؟

إن لخالق هذا الكون نظامًا، جَهِلَه كلُّ من جعلَ السلامَ سلعةً رخيصةً بين اليدين، ولإحكامِ هذا النظامِ الربانيِّ، تدورُ دائرةُ السوءِ على الظالمِ، وإن استدرجته الحكمةُ الربانيةُ زمنًا، وقد جعل اللهَّ لكل شيءٍ قدرًا، وللتاريخِ شاهدٌ وعبرةٌ، يأبىٰ كثيرٌ من الناسِ الاتعاظَ بها، ولكن يعلمونها بأنفسهم بعد أن يَكسروا القواعدَ.

وليس هناك معنًى أكثر كثافةً وغزارةً في أدبياتِ السياسةِ مِثلُ قيمِ السلامِ، وإذا غابَ السلام عن عالَمِنا تنازلَ الإنسانُ عن سجيَّتِه وتجرد عن إنسانيتِه، تجدُ السلام يختفي بين العالَـمِ بأسرِهِ، ثم هل من وحشيةٍ تُقابِلُ هذه الوحشيةَ؟

أيها الإخوةُ.

جميعُ ما سبق لا يَحمِلُنا على التشاؤم، وقد رسَّخ فينا الإسلامُ الأملَ والتفاؤلَ، وهذا المؤتمرُ يجري في سياق هذا المعنى الرفيعِ، بجمعه المتنوعِ بوزنٍ كبيرٍ في هذا الشأنِ، مذكرًا بقيمِ السلامِ في الوجدانِ الحيِّ، مُنبِّهًا على مخاطرِ فقدانِه في زمنٍ لم يعد يحتملُ المزيدَ من المعاناةِ والآلامِ، خاصةً وقد قابلَ التطرفَ الإرهابيَّ تطرفٌ مضادٌّ، وقابله خطابٌ كاذبٌ أنتج «الإسلاموفوبيا»، وحكم بمعاييرَ عشوائيةٍ وكراهيةٍ مجردةٍ على مليار و٦٠٠ مليون مسلم، بجريرةٍ لم يرتكبها سوى القليلُ، متجاهلًا أن التطرفَ في عمومِ الأديانِ والمذاهبِ له وقائعُ تاريخيةٌ مؤلمةٌ، تحضرُ وتغيبُ، من زمنٍ لآخرَ.

أيها الإخوةُ.

خطأُ المعالجة يعودُ بنا إلى قصفٍ تاريخيٍّ جديدٍ من الصدامِ الحضاريِّ والصدامِ السياسيِّ، وليت عالمَنا يعودُ ولو قدرًا بسيطًا من حفظِ وعيِه المعيشيِّ؛ ليُثبِتَ أن الإيمانَ بسنةِ الخالقِ -جلَّ وعلا- في الاختلافِ والتنوعِ والتعدديةِ.

هذا الإيمانُ في طليعةِ مكوناتِ السلامِ، وقد ضاق به التطرفُ ذرعًا، هذا التنوع يجب أن يكونَ بوعينا في هذه السُّنَّةِ الإلهيةِ التي تعتمدُ على التقاربِ والتلاقي

لخدمةِ البشريةِ وإسعادِها، والمعالجة تقودنا إلى حقيقةٍ مهمةٍ، تؤكدُ أنَّ التطرفَ والإرهابَ ليس له مدرسةٌ دينيةٌ معينةٌ، وأن أسراره تشكلت مؤخرًا من مائةِ دولةٍ، جند منها ٤٥ ألفَ مقاتلٍ من اتجاهاتٍ فكريةٍ مختلفةٍ، ولكن لها هدفٌ واحدٌ، نشأ وتعلَّمَ في بلادٍ غير إسلامية، وقد خرج من بلدٍ أوروبي واحدٍ ١٥٠٠ مقاتلٍ، التحقَ بهذا التنظيمِ.

أيها الإخوةُ.

يجب أن نعلمَ أن للسياسةِ دورًا مهمًا في تشكيلِ هذا الإرهابِ، فسلبيةُ الدولةِ أحيانًا تكونُ سببًا مهمًّا في تشكيلِ الإرهابِ، كما أن تغييبَ العواطفِ الدينيةِ، يجعلُ الشبابَ من السهلِ استدراجُه نحو تلك الأفكارِ المتطرفةِ، من خلالِ زيادةِ نزعةِ الكراهيةِ، أو لحسابِ مُساجَلاتٍ سياسيةٍ، وهو ما أفرزَ لُوثةَ «الإسلاموفوبيا»، أو من خلالِ البراجماتيةِ التي لم تُفرز عدالةً بالمعنى الشاملِ، ولم تجعل لها قيمةً، وقد جعلت من قاصرِ الوعيِ والنظرِ مشهرًا سيفَ تطرفِه الأحمق، متدثرًا زورًا برداءِ الدينِ.

أيها الإخوةُ.

أيها الجمعُ الكريمُ.

لا أُطيلُ عليكم، وإنما أختمُ بأن أسأل المولى عز وجل بأن يباركَ في هذا المؤتمرِ، وأن يَجزِيَ القائمين عليه ومن ساهمَ ومن حضَرَ خيرَ الجزاءِ، ولكم منِّي مجددًا تحيةُ الإسلامِ.

فالسلامُ عليكم ورحمةُ اللهِ وبركاتُه.